كانت(1) الساعة قد تجاوزت منتصف السادسة صباحا عندما ولجت مكتب سفريات القنيطرة من بابه المتخلع ، وحين احتواني المكان صفعت انفي رائحة كريهة ، هي مزيج من اختلاط رائحة المازوت والكاوتشوك بالعفونة الناتجة عن الرطوبة ودخان السجاير ، وانفاس الركاب الذين التفوا حول المدفأة بشكل غير منتظم ، يدخنون ويمضغون الكلام بملل .

وصاح بي احد الموجودين ، وقد ارعشته لفحة البرد التي تسربت الى المكان عند دخولي :

ـ اغلق الباب من فضلك ..

ونظرت اليه .. كان واحدا من جنود ثلاثة ، جلسوا صفا واحدا على مقعد عريض كانهم في طابور ، وكان يبدو على وجوههم التعب والاعياء كانهم لم يعرفوا النوم او الراحة منذ ايام واستدرت نحو الباب ودفعته برفق لايخلو من القوة ، فانطبق رتاجه وهو يحدث صوتا مزعجا تاركا وراءه تواترا غنيا باهتزازات ألواح الزجاج المتخلعة ، الامر الذي ذكرني بفرقة سينما راديو الموسيقية التي كانت تعزف مقطوعاتها الموسيقية خلال فترات الاستراحة . ورانَ الصمت لحظات ، وشعرت بان عيون الموجودين تتجه الي تكاد تلتهمني بتساؤلها ، ونظرت الى الجميع نظرة تافهة ، ثم اتجهت نحو قاطع التذاكر الذي كان يجلس قريبا من المدفأة وخلف طاولة عتيقة قذرة يعرك احدى عينيه ببطء وسألته مبددا الصمت الذي ساد المكان :

ـ في سيارة للقنيطرة ؟!

فهز رأسه بالايجاب وهو يغوص في معطفه الطويل المهتريء متثائبا من جديد ، وهارشا رأسه هذه المرة عوضا عن عرك عينه .

غير اني عدت الى سؤاله مستفهما وانا ادفع ثمن تذكرة السفر :

ـ ولكني لاارى سيارات امام المكتب ؟!

فاجابني وهو يسجل اسمي ومهنتي ويكح في الوقت نفسه :

ـ ستاتي السيارة بعد قليل .. جميعهم ينتظر مثلك ..

ولم اجبه واتخذت مكانا بعيدا عن المدفأة ، وعن الذين تحلقوا حولها، واخرجت من جيبي جريدة كنت قد اشتريتها لتعينني على السفر ، واخذت اقرأ مافيها ، وافحص المكان الذي انا فيه مرة اخرى ..

كانت هذه هي المرة الاولى التي يتاح لي فيها الجلوس داخل المكتب الذي كان اشبه بالمستودع القذر الكبير منه بمكتب للسفريات ، وكانت هناك ستائر مهلهلة تقسم المكان الى قسمين خلفي وأمامي ، ففي الزاوية اليسرى من القسم الخلفي ، قامت عجلات السيارات بعضها فوق بعض، ونهض بالقرب منها عدد من براميل المازوت ، وقبع على الارض ، وفي المكان الاكثر ظلاما ورطوبة فراش لاتعثر عليه العين الا بصعوبة ، وقد تبينت بفضل عدد من الجرذان التي كانت تتراكض قرب الفراش ، على انسان نائم فيه ، وعدا هذا كانت الارض ترابية ، كثيرة الحفر ، تنز منها الرطوبة بشكل ملحوظ يساعدها على ذلك صنبور ماء قام في حقيقته لاطفاء ظما المسافرين ، واضحى مع المغسلة المهشمة التي ركب عليها لايعرف غير ارواء الارض التي يسيل اليها الماء عبر المجرى المخلع الكثير الثقوب .

وعدت الى الجريدة اقرأ مافيها من اخبار ، حتى اذا وجدت الاخبار هي الاخبار نفسها التي تباع للقراء صباح كل يوم نظرت عبر زجاج الباب، فلم اتمكن من الرؤية ، كان الزجاج كثير النعرق بسبب الدفء الذي يسود المكان والبرد القارس الذي يغمر الطريق ، وكان قاطع التذاكر يعبث باصابعه دون ملل بالطبقة الرقيقة من الضباب التي تشكلت على زجاج الباب كي يتمكن من مراقبة الطريق انتظارا للسيارة الموعودة .

وتطلعت نحو الاشخاص المتحلقين حول المدفأة ، كان هناك غير الجنود الثلاثة شرطي مسن يجلس بجانبهم ، ويعبث بشاربه الكث دون ان يبدو عليه اي كدر او انزعاج بينما ازداد القلق بصورة بارزة على وجوه الجنود الثلاثة ، حتى ان احدهم سأل قاطع التذاكر متذمرا :

ـ قلت لنا السيارة لن تتاخر اكثر من عشر دقائق ، وها قد مضى علينا نصف ساعة ونحن ننتظر والسيارة لم تات ..

فاجاب قاطع التذاكر وهو يضع بين شفتيه لفافة من ارخص انواع التبغ :

ـ انا لم اكذب عليكم .. عشر دقائق ، ربع ساعة ، نصف ساعة ... على كل لن تتاخروا اكثر من ذلك ..

فقالت امراة اتخذت ركنا قصيا ويبدو على وجهها الاضطراب وقد وقف الى جوارها طفل في الثامنة او السابعة من عمره :

ـ الله يسمع منك ..

بينما قال الجندي الثاني وكان صوته يتناسب في خشنته مع طول وجهه :

ـ خط القنيطرة طوله وعرضه ينتظر سيارة واحدة فقط ..

وقال رجل كان يدخن كثيرا :

ـ لم يحدث مثل هذا التاخير قبلا .. ترى ما السبب ؟!

فقلب قاطع التذاكر شفته دون ان ينبس ببنت شفة بينما استمرت اصابعه تعبث كطفل صغير بضباب زجاج النافذة فترسم خطوطا طويلة وتقطعها باخرى عريضة ..

واغمض الجندي الذي لم يتكلم ابدا عينيه ، واسند رأسه الى الحائط ، وقد ساد الصمت من جديد الا من بعض السعال الذي كنت اقذفه بين الحين والاخر .

وراقبت المرأة والطفل الاشقر الذي معها مستغربا وجودها في هذه الساعة المبكرة من الصباح .. كانت تغطي وجهها بملاءة سوداء ، وتدل حركاتها العصبية واضطرابها على ان هناك مايزعجها ، وفجأة سأل رجل كان يرتدي طاقية من صوف ويتسربل بمعطف طويل كحلي اللون بلهجة الامر :

ـ اين اسعد ؟!

فاجابه قاطع التذاكر : انه نائم يا « ابو احمد » ..

ثم اردف : أتريد شيئا ؟!

فصاح الرجل متعجبا : نائم .. حتى الان .. لم لم يستيقظ ؟!

فقال قاطع التذاكر وكانه يعتذر : تاخر في سهرته قليلا ليلة امس..

فتمتم الرجل مستفهما وهو يتلفت حوله متفحصا المكان : ولكني لا ارى المكان نظيفا .. ثم تابع قوله : لاتخدعني .. انه لم ينظف المكان قبل نومه اليس كذلك ؟!

وكبت ضحكة كادت تفلت مني وتساءلت بيني وبين نفسي :

ـ ترى هل تجدي النظافة في مكان كهذا ؟!

واجاب قاطع التذاكر : انا لم اخدعك ، وكل مافي الامر انه سهر

---

1 ـ هذه القصة اذيعت في البرنامج الثاني بالقاهرة .

قليلا ليلة امس ثم عاد ليأوى الى فراشه .

فقال ابو احمد غاضبا : ايقظه .. ايقظه .. حسبته نظف المكان قبل ان يأوى الى فراشه ..

فصاح قاطع التذاكر بملء فيه مناديا : اسعد .. اسعد ..

فلما لم يجبه احد قال مخاطبا معلمه : لقد اخذ مني البارحة ثلاث ليرات على حساب اجرته ..

وحك ابو احمد ذقنه مفكرا بينما وقف الطفل الاشقر قبالة امه صائحا بما يشبه الهمس :

ـ انا جوعان ؟!

فاجابته امه : بعد قليل تاكل في البيت ..

وضرب الطفل الارض بقدميه الصغيرتين وعاد يقول في عناد : ولكني جوعان .. « بدي آكل .. وانقذ الام من حيرتها وارتباكها صوت قاطع التذاكر الذي جلب اهتمام الصغير وهو يصيح : اسعد .. اسعد .. وجاءه من خلف الستائر القذرة صوت واهن ضعيف :

ـ كفاك صياحا لقد نهضت ..

ونظرت الى الفراش الرابض فيه .. كان يتحرك فيه متململا ، وكان ثمة جرذ يتحرك هو الاخر في نهاية الفراش . وتحولت نظرات الصغير نحو الجندي الذي عاد يوجه حديثه الى قاطع التذاكر وقد تبينت في لهجته هذه المرة مايدل على انه من منطقة جبلية :

ـ تقدر ياسيد ان تقول لي متى ستأتي السيارة ؟!

فقال قاطع التذاكر بلا مبالاة وكانه اعتاد مثل هذه الاسئلة او ملها :

ـ بعد خمس دقائق على الاكثر ..

فعاد الجندي يقول في الحاح : مضت ساعة ونحن ننتظر ..

ولم يجبه قاطع التذاكر مباشرة غير انه سال بعد قليل : لم انتم في عجلة ...

فقال الجندي : اتدري يا رجل باني لم انم منذ ليال ثلاث ..

ـ حقا .. ولماذا ؟!

فاجابه الجندي الثاني متجاهلا سؤال قاطع التذاكر : ولا انا ؟!

فسأل رفيقه : وأين مأذونيتك ؟!

ـ لقد ذهبت الى البلد .. رأوني جنديا قد الدنيا .. كان الجميع ينظرون الي باحترام ..

فساله صديقه : أو لم تنم طوال هذه المدة ؟!

فرد عليه باقتضاب : لقد تزوجت ؟!

فأغرق الجندي الاول بالضحك وقال : تزوجت .. اذن فالعروس هي التي اطارت النوم من عينيك ..

فاجابه هذا ضاحكا : اجل .. حقا ان الزواج شيء جميل ، ولكن تصور ياأخي مأذونية زواجي خمسة ايام فقط ..

ـ خمسة ايام فقط ؟!

ـ اجل .. ولكنني عائد الى رئيسي لاجددها منه .. انه رجل طيب ، ولكن هل يمكنك ان تتصور انسانا يفترق عن عروسه بعد ايام خمسة من عقد قرانه عليها .. انها مصيبة ..

وقهقه الجنديان ببساطة ، وارتسمت على شفتي الشرطي الذي لم يتكلم ابدا ابتسامة حلوة ، بينما كف فم قاطع التذاكر عن التثاؤب ،حتى اذا هدأت موجة الضحك قال الجندي الاول مخاطبا قاطع التذاكر من جديد :

ـ نعود الى سيارتك المحترمة .. متى سيكون تشريفها الكريم ..

فاجابه هذا مقاطعا : لم انتم في عجلة .. الا ترون كيف يمضي الوقت دون ان نشعر ..

وقالت المرأة : الهي تسوق السيارة .. زوجي مريض ولم اجد الدواء في القنيطرة واضطررت الى ركوب شاحنة مع ابني لاشتري له الدواء من الشام ..

وقال الرجل الذي مافتيء يدخن : ان شاء الله خير .. ان شاء الله خير .. وصاح الطفل مقاطعا الرجل : انا جوعان .. جوعان ..

كانت الدموع تومض في عينيه ، وبدأ كانه على وشك البكاء ، ونظرت الى الساعة ، كان العقربان يشيران الى السادسة والنصف ، وبدأ القلق يغزو نفسي انا الاخر ، فانا معلم مدرسة ، وجل ماأخشاه ان اصل بدوري متأخرا ، فاضطر للاعتذار ثانية لمدير مدرستنا الطيب ..

وعاد ابو احمد يتساءل مع قاطع التذاكر : يظهر ان اسعد قد عاد للنوم.

وصاح قاطع التذاكر من جديد : اسعد .. اسعد ..

فأجابه صوت من خلف الستار يقول يقول : صبرا .. اني ارتدي ثيابي .. دقيقة واحدة .. دقيقة واحدة ..

ـ اسرع فان « ابو » احمد مستاء منك ..

وايقظ صوت بائع التذاكر الجندي الذي بقي نائما طوال الوقت فهب مذعورا وهو يسأل :

ـ اجاءت السيارة ؟! اجاءت ..

فرد عليه زميلاه : لم تأت بعد .. عد الى نومك ..

فجلس على مهل ثم سأل بعد ان اشعل لنفسه سيجارة : كم الساعة الان ؟!

فاجابه الشرطي بصوت ممطوط وهو يحدق في ساعته : الساعة السابعة الا عشر دقائق ..

ـ ماذا تقول ؟!

وهب واقفا من جديد ومعه صديقاه وقد ظهر الفزع في اعينهم والارتباك في حركاتهم وقال احدهم مهدئا من صوته : الله يلعن ها المكتب وها الخط .. ان رئيسنا دقيق جدا ..

لاشك بانه سيحرمنا في المستقبل من المأذونيات اذا تأخرنا اكثر من ذلك ..

واربكهم هذا فاحتاروا ماذا يفعلون ، غير انهم مالبثوا حتى عادوا الى جلستهم وقال الرجل الكثير التدخين : لم يحدث مثل هذا قبلا ..

وقالت المرأة : جل ماأخشاه ان اصل متأخرة ، فلا يفيده الدواء في شيء .

واسند الجندي الذي كان نائما رأسه الى الحائط من جديد ، وطفق

فتاة في المدينة ..

مجموعة اقاصيص بقلم

محمد ابو المعاطي ابو النجا

دار الآداب — صدر حديثا

يدخن ثم سأل الشرطي الذي يجلس بجواره : اراك في عجلة من امرك، اليس هناك ما يضطرك الى السفر بسرعة ؟!

وانفرجت اسارير الشرطي قليلا ثم اجاب : بلى ... انا في شوق للوصول الى بلدتي ... في شوق لان ارى اسرتي .. زوجي واولادي، مضى عام علي دون ان اراهم .

ولكن ماذا يفيد الاحتجاج ما دامت السيارة لم تات.. اني اتحرق شوقا الى لقياهم ، ولكن التجارب في الحياة علمتني الصبر ..

وهز الجندي براسه موافقا ، ونهض رب العمل ابو احمد واخذ يسير ببطء وقد بدا متجهم الاسارير ، فنظر من وراء الزجاج الى الطريق وهو يعبث بسبحته ، ثم ما لبث حتى ارتد الى مكانه ليعاود النظر الى الستار وكله امل في ان تنفرج عن اسعد ..

ومرت دقائق ثم تحركت الستائر قليلا ، وظهر خلفها اسعد ، وهو يتمطى ، ويصلح في الوقت نفسه من شان ثيابه ...

واتجهت الانظار اليه ، كان فاره الطول ، مليح القسمات ،قوي الجسد ، ثابت النظرات ...

وصاح فيه معلمه بحنق : اين سهرت البارحة ؟

فنظر اليه اسعد في بلادة متعجبا ولم يجبه ، ثم ادار ظهره وتوجه نحو المغسلة وبدا يغسل وجهه بهدوء ، والماء يتسرب ببطء الى الارض..

وقال قاطع التذاكر : يا اسعد معلمنا عم يسالك فاجبه ؟!

ولم يجب اسعد بشيء ..

واخذت المياه المتسربة من انبوب المغسلة ، تكون مستنقعا صغيرا على ارضية المكان ، ولذ لي مراقبة المشهد ..

من حق اسعد الا يجيب اطلاقا .. الا يقوم بعمله ، هل يتدخل في شؤون الاخرين ؟! اذن ما دخل معلمه بشؤونه الخاصة ؟!

وتمنيت من اعماقي الا يجيب هذا العامل المفتول الساعدين بشيء .

وصاح الطفل في امه بغتة : انا جوعان .. جوعان .. بدي آكل ..

وعاد المعلم يسأل دون ان يعبأ باللفظ الدائر بين الام وطفلها :

سلم لم تستيقظ باكرا ، وتنظف المكان كعادتك ؟!

ولم يجبه اسعد ايضا بشيء ، وبدا كانه اعتزم الصمت ..

وقال قاطع التذاكر يستحثه : جاوبه يا اسعد .. جاوبه. . انه معلمنا ..

واستدار نحوهما ببطء ورمقهما ببلاهة ، ثم نظر الى الطفل الاشقر، وراقبه قليلا وهو يلح على امه بالطعام ، ثم اقترب من الستائر فجذبها نحو وجهه واخذ يجففه بها :

وقالت المراة : الله يسوق السيارة .. لقد تاخرت كثيرا ..

ونظر اليها اسعد ، ثم نقل نظراته بين قاطع التذاكر ومعلمه ، وكان غضب معلمه المفتعل قد اغاظه ، فضحك ضحكة ساخرة خافتة ثم دلف الى ما وراء الستار فغاب قليلا ، وعاد يحمل معه في يده سطلا ومقشة خشنة فوضع السطل تحت صنبور الماء ليملاه بينما اخذ يكنس الارض مثيرا التراب شيئا فشيئا .

واثار صمته عصبية معلمه فصاح فيه بلهجة امرة :

ـ توقف عن الشغل ..

ثم التفت الى قاطع التذاكر وقال بغضب :

اذن اعطه ست ليرات واصرفه حالا ..

ـ اعطه بقية اجرته واصرفه .. قلت انه اخذ ثلاث ليرات اليس كذلك..

وهز اسعد راسه والقى بالمقشة من يده ، وسد صنبور الماء ثم اقترب بهدوء من قاطع التذاكر فقبض اجرته ، ودسها في جيبه ، ثم رفع باقة سترته المهترئة في اكثر اجزائها ، وابتسم في وجه الطفل الباكي الذي كان ينظر اليه في براءة وفتح الباب ..

ومع فتحة الباب دخلت لفحة من الهواء البارد ، اصابت الموجودين في موجة ذعر جعلت اكثرهم : يصيح : اغلق الباب .. اغلق الباب ..

ولم يكترث لصياحهم ووقف ينظر الى الامطار التي بدات تهطل ثم حفق الباب خلفه ..

وتابعت شبحه من خلف الزجاج حتى ابتلعه الفراغ ... فراغ الطريق، وزحمة المطر .

وهمس الجندي شيئا في اذن الشرطي وهو يرجوه ، فهز الشرطي راسه موافقا ، ونهض ببطء واقترب من المعلم الذي بدا كانه يخاطب الركاب بقوله :

ـ الله يلعن هالزمن .. قبل شهرين جاءنا وما معه فرنك ..اطعمناه وكسيناه وشغلناه وما مر « الشهرين » حتى اصبح من النوات لا يتنازل ولا يرضى ولا يتفضل حتى بالرد علي انا معلمه وولي نعمته ..

قاطعه الشرطي دون ان يعبأ باقواله بلهجة ضمنها الوعيد :

ـ دع هذا الكلام واذهب دبر لنا سيارة احسن لك ؟!

فتغيرت لهجة المعلم واجاب متلعثما : كما تامر يا سيدي .. سندبر لكم سيارة حالا .. حالا .. امهلني بعض الوقت فقط ..

واقترب المعلم من قاطع التذاكر وساله : ماذا اعطيت الولد ؟

فاجابه هذا : ست ليرات كما امرتني ..

ـ والبارحة ؟ !

ـ ثلاث ليرات ..

فقال المعلم مستفهما : اجرته ثماني ليرات فكيف تعطيه تسع ليرات..

فاجابه قاطع التذاكر : لقد صحت بي قبل قليل ان اعطيه ست ليرات وقد فعلت ما امرتني به ..

ـ ابدا ليس هذا بصحيح ..

فقال قاطع التذاكر مضطربا : اسال الحاضرين .. اسالهم .. الم يقل لي ..

ـ لن اسال احدا .. لقد ذهب، وذهبت معه الليرة ، انه لص.. لقد اصبح بعيدا الان .. حقا لقد فعلت حسنا بالتخلص منه ..

وارتفع في تلك اللحظة صوت نفير السيارة القادمة ، فصاح الرجل الذي كان يدخن كثيرا :

ـ لقد جاءت اخيرا ..

وصاح المعلم : سا حسم الليرة من راتبك يا « ابو » علي انا ما لي علاقة ..انت الذي اعطيته ليرة زيادة على اجرته ..

ونهضت في تلك اللحظة مع الجنود والشرطي وسائر الركاب لنتخذ امكنتنا في السيارة، وقبل ان نفتح الباب لنخرج من اجل ذلك ، وفي خلال الزحام الذي حدث بسبب قدوم السيارة ، انفتح الباب ، فجاة، وبدا في فرجته اسعد بقامته المديدة وقسماته المليحة التي تتضح بالطيب، وبعينيه الزرقاوين الهادئتين ، ومياه المطر تبلل وجهه وثيابه الرثة ، وكان ياكل كعكة طرية بينما حمل في يده الاخرى كعكة ثانية ..

وقبل ان يفيق المعلم وقاطع التذاكر من دهشتهما ، شق طريقه نحو الطفل الصغير فحمله بين ذراعيه واعطاه الكعكة الثانية ثم قبله ومسح على شعره الذهبي بيده الثقيلة واعاده الى الارض ، ومن ثم رمقنا ببلاهة وصاح وهو يقذف قاطع التذاكر بليرة فضية :

ـ خذ هذه الليرة يا « ابو » علي قبل ان يحسمها المعلم من اجرتك.

دمشق

صميم الشريف

طبعت على مطابع :

دار الغد للطباعة والنشر

تلفون : ٢٢٢٩٢١